قصة تاجر الرقيق والسلطان الزبير باشا

The story of el Zubeir Pasha, salver and sultan

هنري. سيسيل جاكسون H. C. Jackson

◇◇◇◇◇◇

تقديم: هذه ترجمة لشذرات مختصرة من كتاب

Black Ivory and White, or the Story of el Zubeir Pasha, slaver & sultan

بقلم هنري سيسيل جاكسون، والذي عمل في مجال الخدمة المدنية في السودان لأربعة وعشرين عاما متصلة، وحكم مديريتي بربر وحلفا، ولخص تجربته في الحكم والإدارة في عدد من المقالات والكتب والتي وصف في بعضها عادات السودانيين في مختلف المديريات التي عمل فيها، وأرخ في بعضها الآخر لبعض الشخصيات السودانية مثل عثمان دقنة والزبير باشا رحمة. وقد سبق لنا ترجمة بعض مقتطفات من كتب ومقالات هذا الكاتب.

وكتاب الزبير باشا، والذي نعرض هنا لقليل مما ورد فيه، هو طبعة معادة لبعض الوثائق المحفوظة في مكتبات جامعة كاليفورنيا. وهو أيضا قصة حياة الزبير كما حكاها لنعوم بيه شقير في عام ١٩٠٠م، وأضاف إليها المؤلف ما سمعه من الزبير نفسه عند مجيئه لأم درمان، ومن النور بيه عنقرة ومحمد آدم عمدة الجيلي، والذين رافقا الزبير في حروبه الباكرة.

لا أجد نفسي على اتفاق مع معظم آراء المؤلف التي وردت في نهاية هذا المقال.

المترجم.

١. الأصل والعائلة:

أنا الزبير بن منصور بن على بن محمد بن سليمان بن النعام بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جمعة...بن غانم العباسي. كان جدودي العباسيون قد فروا من بغداد في عام ١٢٧٨ بعد هجوم التتار عليهم، ولجؤوا لمصر حيث وجدوها تحت سيطرة الفاطميين. ولما لم يحتملوا العيش تحت حكمهم، هاجروا للسودان، واستقر بعضهم في النيل الأبيض، بينما هاجر البعض الآخر لدارفور ووداي، وانتشرت البقية على ضفتي النيل. وأنا من أصلاب هذه الفئة الأخيرة من قبيلة الجميعاب. والتي استقرت على النيل بين جبل قري وجبل الشيخ الطيب، واشتهرت بالشجاعة وحب الوطن. وعند دخول إسماعيل باشا للسودان عام ١٨٢٠م رحب به زعمائنا. وكان من ضمن هؤلاء الزعماء والدي رحمة وشقيقة الفيل، والذي ظل وفيا حتى وفاته للمعاهدة التي عقدها مع إسماعيل باشا، وظللت أسير على خطاهم مظهرا الطاعة المخلصة للخديوي حتى يومي هذا.

ولدت بجزيرة وواسي في السابع عشر من محرم عام ١٢٤٦هـ (١٨٣١م). وعندما بلغت السابعة من عمري بعثت لمدرسة الخرطوم للدراسة حيث تعلمت الكتابة والقراءة والقرآن والفقه المالكي على يد على عمر والبصري. وعندما بلغت الخامسة والعشرين تزوجت ابنة عمي، وعملت بالتجارة...

***

٢. فتح (إخضاع) دارفور (١٨٧٣ - ١٨٧٤م)

الحرب ضد الرزيقات وإخضاع شاكا في ١٨٧٣م

في أيام معركتي مع النيام نيام، قامت قبيلة الرزيقات بنقض عهدي معها، وانتشر قطاع الطرق في المنطقة، يقتلون التجار وينهبون قوافلهم. وعندما وضعت حربي مع النيام نيام أوزارها أرسلت للرزيقات عددا من الخطابات أستوضحهم

أسباب موقفهم المعادي، فلم أجد منهم غير السباب والشتائم المستقبحة، والإصرار على منع مرور القوافل التجارية، وتهديد التجار بنهب ممتلكاتهم وقتلهم. وكان سلطان دارفور في ذلك الوقت هو إبراهيم، فبعثت له برسالة في يوم ٢٧ يونيو ١٨٧٣م أشكو له من تصرفات الرزيقات ونقضهم للعهد معي وقطعهم للطريق، وطلبت منه أن يعينني عليهم. غير أن السلطان إبراهيم تجاهل طلبي. وظل رجال الرزيقات سادرين في غيهم، فلم يكن أمامي من بد من إعلان الحرب عليهم وغزو بلادهم مستعينا بالله.

وكان تقدم جيشنا في البدء بطيئا، فقد كان فرسان الرزيقات، وهم على ظهور الجياد، كثيري العدد والعدة. ولم نستطع الانتصار عليهم إلا بعد أن خسرنا أكثر من سبعمائة جندي. ويمكنك أن تقارن ذلك بخسارتنا عند غزونا لدارفور حين لم نخسر سوى جنديين عربيين وعبدين فقط. وكان جيش الرزيقات يصد تقدمنا بقوة، بل ويهاجم بضراوة جانبي جيشنا حيث كانت دفاعاتنا ضعيفة نوعا ما. ولم نستطع، ولعدد من الأيام، التقدم لأكثر من ساعة يوميا في أراضيهم.

وبدأت معاركنا مع الرزيقات يوم ١٠ يوليو واستمرت حتى يوم ٢٨ أغسطس. وأفلحنا في نهاية المطاف من هزيمتهم، ربما بسبب سيطرتنا على مصادر المياه. فأرض الرزيقات شحيحة المياه، وكان عليهم التوجه للأنهار في بحر الغزال، حيث كنا في انتظارهم هنالك، فهزمناهم وغنمنا كل ما كان لديهم.

***

٣. قصة عبد الله التعايشي (١٨٧٣م)!

كان يعيش بين الرزيقات فكي من التعايشة اسمه عبد الله ود محمد آدم تور شين يقوم بعمل "الحجبات" لجنود الرزيقات لتحميهم من طلقات بنادقي النارية نظير إعطائهم له بقرة من قطعانهم. وكان هذا الفكي من ضمن الذين أسرتهم في

حربي ضد الرزيقات في منطقة تقع بين شاكا ودارا، وحكمت عليه بالإعدام. وكنت قد قضيت بذلك الحكم وأنا بين ١٢ من الرجال الحكماء من حفظة كتاب الله الذين أخذت عليهم عهدا أن يخلصوا لي النصح، وأن يراجعونني في أي قرار أتخذه يكون مخالفا لشرع الله الحكيم، فنبهني هؤلاء إلى أن حكمي هذا يخالف الشرع، إذ لا يجوز قتل من يؤسر في الحرب. وإضافة لذلك فإنه ليس من الحكمة في شيئ أن أقتل رجلا يعتقد الناس في صلاحه وتقواه، وإن قتلته فسيؤمن الناس بأني حاكم طاغية متوحش. ونزولا على تلك النصيحة عفوت عنه، وليتني لم أفعل، إذ أن ذات الرجل غدا فيها بعد حاكما على السودان فأشاع فيها البلاء والخراب.

وكان عبد الله التعايشي قد سألني ذات مرة إن كنت أنا المهدي المنتظر حتى يتبعني. فانتهرته وأجبت بالنفي، وقلت له إنما أنا جندي من جنود الله يحارب الطغاة ومن يعصون أوامر الله.

وبعد غزوتي للرزيقات لجأ اثنان من الشيوخ (عليان ومنزول) الذين كانا معي لسلطان إبراهيم في الفاشر. كان عليان هذا من عبيدي السابقين، ثم عمل في التجارة معي وكسب من ذلك مالا كثيرا. وحاول الرجل أن يحرض الرزيقات على التمرد ضدي، فأرسلت بتاريخ ٨/ ٩/ ١٨٧٣م خطابا إلى السلطان إبراهيم أطالبه برد الشيخين الهاربين إلى. غير أن السلطان كان غاضبا مني بسبب إخضاعي للرزيقات فلم يأبه بالرد على خطابي، وأرسل للشيخ مادبو ود على ولبعض عرب الرزيقات خطابا كال لي فيه السباب والشتائم. ووقع ذلك الخطاب في يدي. جاء في ذلك الخطاب: "لا تظنن أنني سأتنازل أو أتخلى عن هذه البلاد لهذا البائع المتجول المتمرد. وعلى العكس من ذلك فأنا الآن أجهز جيشي للانقضاض عليه وطرده من البلاد مدحورا ومخزيا". وعند رؤيتي لذلك الخطاب حررت له خطابا يحذره من أنني لن أدعه حتى يعلن الولاء للخديوي.

احتلال الفاشر:

قدمت مع جيشي إلى الفاشر فاتحا قبيل فجر يوم ٣/ ١١/ ١٨٧٤م. ووجدت كل أطفال وأقرباء السلطان، والذين كانوا قد تركوا في المدينة، قد غادروها، ولم يبق فيها إلا بعض التجار وعلماء الدين. وكان أول ما فعلته هو إعطاء الأمان لكل هؤلاء في أرواحهم وممتلكاتهم، ومعاملتهم بالاحترام اللائق. وما أن سمع من فروا من المدينة بالطريقة التي عاملنا بها من وجدناه فيها حتى آبوا إليها زرافاتٍ ووحدانا، وبايعونا على السمع والطاعة. ومع مرور الأيام بايعنا كل سكان الفاشر من رجال السلطان و العرب والأجانب ورجال القبائل الرحل.

***

٤. من المؤلف:

لقد كان الزبير تاجرا للرقيق... فلنعترف بهذا. وكذلك كان محمد على باشا ونابليون. فقبل أربعة قرون، وعندما كانت بريطانيا في درجة من التقدم والمدنية أعلى من تلك التي كان عليها البلاد التي عاش فيها الزبير ودون قوانين إسلامية تبيح الرق (كما هو الحال في بعض البلاد الإسلامية والعربية) كان هنالك سوق للرقيق في مدينة بريستول. وفي الأعوام التي عاش فيها الزبير كان هنالك رق في البلاد الواقعة تحت الحكم الاستعماري البريطاني. وبحسب ما جاء في مذكرات الرحالة جيمس بيكر، فقد كان في صعيد مصر وإلى عام ١٨٧٠م الكثير من العبيد يخدمون في بيوت المصريين. وحوكم في عام ١٨٩٠م أحد الباشوات المصريين بتهمة التورط في شراء عبد.

وينقم الناس على الزبير أنه استغل ماليا ما كان في "روح العصر" وقتها، ومارس ما كان عادة شائعة مباحة في كل بلد محمدي. غير أنه من الواجب ذكر أن الزبير كان يعامل من يأسرهم معاملة طيبة، مما جعل الآلاف من المسترقين الآخرين

يلجؤون إليه، ويعملون في جيشه، وتحت رايته في مجالي القتال والصيد. ألم يكن ذلك العمل خير لهم من التسكع في المدن والانغماس في المعاصي؟

وينكر الناس كثيرا من أفعال الزبير، ولكن يجب عليهم أيضا أن يتذكروا ما كان يمكن أن يفعله، ولكنه استعصم ولم يفعل. فقد امتنع الزبير عن فعل ما يفعله المنتصرون عادة عند دخولهم للمدن والقرى التي يهزمون جيشها. لم يكن يفعل مثلما كان يفعل النور عنقرة مثلا، والذي عرف بالقسوة المفرطة إذ كان يشق بطون أعدائه ويستخرج كُلْياتهم وينثر عليها بعض ذرات الملح ويأكلها! ولم يتوقف عن ذلك الفعل الشنيع إلا بعد تهديد ووعيد من الزبير بأن لا يفعل وإلا سيلقى أشد العقاب.

obeikan.com